خطبة صلاة الجمعة 7/ 6/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(خصائص التكافل الاجتماعي في الإسلام)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 23 – 27].

أخرج الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ،.. قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: (اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

وأخرج الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا،... وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ».

عنوان خطبة اليوم: خصائص التكافل الاجتماعي في الإسلام

أيها الإخوة:

كل عام وأنتم بخير..

مرت أيام رمضان الجميلة، تزاحم فيها العباد في ليلهم قياماً وفي نهارهم صياماً، وتسابق فيها المنفقون زكاة وصدقات، إفطارَ صائمين وكسوةَ محتاجين، وعيادةَ مرضى ومساعدةَ مساكين، وتأتي أيام العيد ليصل الناس أرحامهم ويزوروا جيرانهم ويبروا أصدقاءهم، إنها صور وآليات شرعها الإسلام ليدعم التكافل الاجتماعي بين الناس، فالإسلام حسن صلة بالله، وحسن صلة بالناس، ولن يستقيم إسلام المسلم، ولن يكمُل إيمان المؤمن حتى يحسن الاثنين معاً، فبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعناية بالأجير، وحفظ حقوق الزوج، والاعتناء بالزوجة، ورعاية الجار، وابن السبيل، وكفالةُ اليتيم وطالب العلم؛ صور من صور التكافل الاجتماعي في الإسلام، والزكاة، والوقف، والصدقة، والوصية، والميراث، والكفارات، والعارية، والأضحية، والقرض الحسن، وصدقة الفطر، والعقيقة، والهدية، والنفقات؛ آليات شرعها الإسلام للتكافل الاجتماعي.

وفي بلد عربي استطاع صندوق الزكاة، على ما ذكره تقريره السنوي، صناعة خمسة عشر مشروعاً، قدمت العون لكثير من المواطنين، أعرض عليكم أسماءها لتنبيكم الأسماء عن أثر الزكاة وحدها في دعم التكافل الاجتماعي، فما بالكم بباقي الصور والآليات؟!.

1. مشروع أجر وعافية؛ لمساعدة المرضى.
2. مشروع تواصل؛ لدعم أسر السجناء.
3. مشروع كافل؛ لدعم أسر الأيتام.
4. مشروع إعانة؛ لتقديم معاشات شهرية للعاجزين عن العمل.
5. مشروع مودة؛ لدعم تزويج الشباب.
6. مشروع اقرأ؛ لدعم طلبة المدارس.

7. مشروع وقل رب زدني علماً؛ لأجل الأقساط الجامعية.

8. مشروع تلاحم؛ لمساعدة المطلقات.

9. مشروع رحمة؛ لدعم الأرامل.

10. مشروع "وقل رب ارحمهما"؛ لتقديم العون للمسنين.

11. مشروع داعم؛ لدعم ضعفاء الدخل.

12. مشروع أمل؛ لذوي الاحتياجات الخاصة.

13. مشروع أمتي؛ لأجل المسلمين الجدد.

14. مشروع إخلاص؛ لعون الغارمين.

15. مشروع فزعة؛ لدعم المنكوبين.

وهكذا تتحول الزكاة إلى تكافل بين أفراد المجتمع.

أخرج الإمام البيهقي في دلائل النبوة عن عمر بن أسيد قال: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً، ثلاثين شهراً، لا والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقولون: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، لا نجد من نضعه فيهم، فيرجع به.

أيها الإخوة:

التكافل الاجتماعي: هو كفالة الحاجات الضرورية لكل فرد من أفراد المجتمع، ويجد الباحث في التشريع الإسلامي خمس خصائص للتكافل الاجتماعي في الإسلام، هي:

1- للتكافل الاجتماعي في الإسلام صور متنوعة وآليات متعددة، فإن لم تفلح صورة في انتشال فقير أفلحت أخرى، وإن لم تغن آلية في إنقاذ مريض أغنت أخرى، فلو خاف إنسان على نفسه المرض أو الفقر أو الجهل، جاء أبوه لينتشله من ذلك؛ لأن نظام النفقات ورعاية الأبناء في الإسلام كفيل بذلك، فإن لم يكفله أبوه كفله ابنه ببر الوالدين والنفقة عليهما، فإن لم يفعل أو لم يسطع جاءت

رحمه، فإن لم يجد رحماً جاء صاحب العمل الذي يعمل عنده، فالجار، فإن لم يفعل أحد ذلك جاءت آلية الصدقة أو الزكاة أو الوقف لتنتشله من ذلك، وبالنتيجة لا يسقط إنسان في المجتمع المسلم، ولو أننا وجدنا إنساناً سقط بفقر أو بمرض أو جهل فيعني ذلك تقصير أفراد المجتمع في تطبيق صور وآليات التكافل الاجتماعي في الإسلام.

2- التكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مقصوراً على النفع المادي فقط، بل يتعداه إلى الدعم المعنوي والنفسي، فزيارة المريض وتشييع الجنائز آليات من آليات التكافل الاجتماعي في الإسلام وقد لا يكون لها أثر مادي، لكن لها أثر معنوي، ومن لطيف الأوقاف الإسلامية وقف الأعراس، وهو وقف مخصص لإعارة الحلي والزينة للفقراء في أعراسهم فيستعير الفقراء منه ما يلزمه، لكي يظهر بالمظهر اللائق في فرحه، ثم يعيد ما استعاره بعد انتهاء الحفل، ووقف خداع المريض: وهو وقف ينفق فيه على اثنين من الممرضين ويكلفان بالوقوف قريباً من المريض بحيث يسمعهما ولا يراهما، فيقول أحدهما لصاحبه: ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟، فيرد عليه الأخر: إن الطبيب يقول: إنه لا بأس به وبحالته، فهو مرجو البرء، ولا يوجد في علته ما يشغل البال، وسينهض من فراشه بعد يومين أو ثلاثة، وبذلك يعطيان المريض دعماً معنوياً له أثره الكبير في شفائه بإذن الله تعالى.

فالتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مقصوراً على النفع المادي فقط، بل يتعداه إلى الدعم المعنوي والنفسي.

3- التكافل الاجتماعي في الإسلام يشمل جميع المواطنين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ذكر أبو يوسف في كتاب الخراج عن أبي بكرة قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه؛ فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه، قال أبو بكرة: أنا شهدت ذلك من عمر ورأيت ذلك الشيخ.

4- التكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مع جيل واحد بل مع الأجيال المتتابعة: فترى في نظام الوقف آلية لكفالة أناسٍ سيلدون بعد مائة سنة أو مائتين، وهو مايسمى الوقف الذري، ويشجع

نظام الوقف على إشادة المدارس والمشافي وشق الطرقات وحفر الآبار ووقفها على عامة الناس وخاصتهم، وهي منشآت تفيد منها الأجيال جيلا بعد جيل، فست الشام أخت سيدنا صلاح الدين الأيوبي، وهي من وفيات 616 هـ بَنَتْ مدارس في دمشق درس فيها الطلاب مئات السنين بعدها، بينما أنشأت أختها مدرسة في منطقة الصالحية لايزال طلابنا إلى اليوم يدرسون فيها تسمى مدرسة الصاحبة، وعشرات ومئات من المدارس مثلها، وهناك نظام الخراج، فالأصل أن توزع أراضي البلاد المفتوحة على أفراد الجيش، غير أن سيدنا عمر لما فتحت أراضي العراق أوقف هذا النظام؛ لأنه رأى أنهم بأخذهم لهذه الأرضي ستنتقل إلى أسرهم، ولن يأخذ مَنْ بعدَهم من المسلمين الجدد شيئاً، فأصدر قانوناً ينص على بقاء الناس بعملهم فيها إلا أن ملكها يبقى لله تعالى، وهي ما تسمى الأراضي الأميرية.

فالتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مع جيل واحد بل مع الأجيال المتتابعة.

5- تجاوز التكافل في الإسلام عالم الإنسان إلى عوالم المخلوقات الأخرى، جاء في كتاب الفقه الإسلامي وأدلته: (أما نفقة الحيوان: فيجب على المالك إطعام بهائمه ولو مرضت، وسقيها وريها، لقوله صلّى الله عليه وسلم : «عُذّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، لا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل حشاش الأرض» ويحرم عليه أن يحملها ما لا تطيق؛ لأن فيه تعذيباً للحيوان الذي له حرمة في نفسه، وإضراراً به، ويحرم أن يحلب من لبنها ما يضر بولدها؛ لأنه غذاء للولد، فلا يجوز منعه، ولأن كفايته واجبة على مالكه، ويسن أن يقلم الحالب أظفاره لئلا يؤذيها عند الحلب، كما يجب إبقاء شيء من العسل في الخلية بقدر حاجة النحل إذا لم يكفه غيره، وإن امتنع المالك من الإنفاق على بهيمة، أجبر عليه عند الجمهور قضاء وديانة) وجاء في كتاب الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي: (يلزم نفقة الزروع والأشجار، بسقي ورعاية، إن لم يكن بصاحبها رغبة باقتلاعها لعمارة ونحوها).

فالتكافل في الإسلام تجاوز عالم الإنسان إلى عوالم المخلوقات الأخرى.

أيها الإخوة:

هذا شيء عن نظام التكافل في الإسلام وخصائصه، فالإسلام دين لا يترك مريضاً لمرضه ولا جاهلاً لجهله ولا فقيراً لفقره، والإسلام دين يحول المسلم إلى إنسان يبذل البر والخير إلى كل من استطاع ممن حوله، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77].

والحمد لله رب العالمين